البحث رقم (١)

"_ علوم البديع والبيان ومظاهرهما في اللغة المصرية القديمة"

د.أيمن عبد الفتاح وزيري

ما من شعبٍ قديمٍ آثر التعلم وأهله ، أو الكتابة والكتاب بإكبار وتمجيد أكثر من المصريين القدماء، فهم قد جعلوا للكتابة ربة وهى سشات المعبودة المُختصة بالكتابة ، كما جعلوا للكتاب رائداً سماوياً وهو "جحوتي" إله العلم والمعرفة ، وافترضوا لأربابهم الكبار كتباً وكتبة مقدسين فى السماء يعملون فى خدمتهم ، وتمنى ملوكهم منزلة الكتاب فى أخراهم ووصف بعضهم بأنه صاحب الكتاب المقدس العارف وظهر بعضهم فى صوره يحمل أدوات الكتابة ، اعترافاً منهم بأهمية الثقافة والمُثقفين وكذلك أهمية العلم والعلماء والمُتعلمين وتتمثّل شواهد وبراهين التعلم والعلوم –خاصةً فيما غلب الطابع التعليمي– على كتابات كراسات البردى والألواح الخشبية وكسر الفخار ولخاف الأحجار . وكثيراً ما كانت دروس الأخلاقيات تتداخل فى فروع الدراسات الأدبية الأخرى، فتداخلت فى الآداب القديمة وتعاليمها التى لم تخل واحدة منها من حكم أخلاقية ومُثُل للسلوك القويم . ولعل تلك الغلبة التى استأثرت بها الآداب القديمة (الكلاسيكية) فى دراسات الدولة الحديثة يُحتمل أن يكون مبعثها ثقة المعلمين بها باعتبارها تراثاً من تعبيرات راقية وتشبيهات مختارة وحكم سديدة ارتضاها الذوق الأدبى العام فيما تقدمهم من عصور، وعلى هذا أدرجوها فيما أطلقوا عليه تعبير الأقوال المقدسة، تقديراً لها وتثبيتاً ، ثم اعتبروها أساساً لابد منه للناشئ المتأدب. ولا يخلو هذا التقدير من شبه مع تقدير عصورنا الحديثة لآداب العصور العربية والإسلامية الأولى، من حيث قيمها البيانية والبلاغية، ومن حيث أنه ما من بليغ مستحدث فى اللغة يقوم على غير أساس من التراث القديم، ثم من حيث هى تمثل الآداب القومية الخالصة قليلة التأثر بالاتجاهات والأفكار الأجنبية. ولم يكن تعلّق الأدباء والمعلمين المصريين بأساليب الأسلاف وحكمتهم قاصراً فى واقع أمره على عصر الدولة الحديثة وحدها، وتشهد بذلك تعاليم بتاح حوتب – حين استأذن الملك أن يعلم ولده "أقوال المتفقهين، وآراء السابقين الذين أطاعوا الأرباب وأخلصوا للأسلاف" – وحين قال عن أولئك الأسلاف "إن صوابهم هو (سر) مجدهم، ولن تزول ذكراهم من أفواه الناس بما كان عليه جمال حكمتهم وعلى الإنسان أن يتداول أقوالهم كلها، ولن تزول من هذه الدنيا إطلاقاً ". وقد كان الأدب المصرى القديم كان أدباً شعرياً خالصاً ، اللهم إلا ندرة من الأعمال النثرية التى قد نسميها أدبية. أما الأنواع الأدبية الأساسية كالحكم والنصائح والتعاليم الإرشادية والصلوات والترانيم والأغانى ومعظم القصص فقد كتبت فى صورة شعرية ، فالأدب المصرى القديم استخدم ووظف ثلاثة أساليب هى كما يلى: النثر، والشعر وأسلوب يقع بينهما ويُمكن أن يُسمى " الأسلوب الوسط" ولقد كانت السمة المُميزة للنثر هى انتهاج الفكرة فى صورة خطيّة بديعة عن طريق جمل مبنية بطرق متنوعة، ولعل هذا التنويع كان مقصوداً من أجل كسر رتابة الإيقاع المُعتاد والمُتوقع، أما الأسلوب الوسط بين النثر والشعر، فيتسم بالجمل المُتناسقة، ولذلك يُمكن أن يُطلق عليه الحديث المُتسق أو الأسلوب الخطابي المسجوع ، ولعله يُشبه أسلوب بعض الكتب المقدسة فيما بعد، كما يُماثله –إلى حدٍ ما – ما يُعرف فى الكلاسيكيات العربية بأساليب السجع. وتجدر الإشارة إلى أن علم البديع على يرتكز على محورين : <u>الأول:</u> يختص ببعض الفنون البديعية المعنوية مثل: الطباق، والمقابلة، والتورية، والتجريد، والمبالغة. <u>أما الثانى:</u> فيختص ببعض الفنون البديعية اللفظية مثل: الجناس، والسجع، والتلميح. ومما لاشك فيه أن علم البديع يُعد واحداً من أهم علوم اللغة قديماً وحديثاً ، فهو يُمثّل لب الثقافة، ومنهاج القدرات الإبداعية، كما أن علم البيان كان يتضمن في طياته التشبيه والاستعارة والكناية .